من يعنى بالمساهمة فى الأعمال المنزلية .

ولا شك أن تحليل هذه الضروب من المباهج التى تملأ « الأوقات الممتعة » يبرز لنا بشكل قاطع صبغتها الأنانية ، فوق أنها جميعاً ، باستثناء الرقص ، ذات لون سلبى ، وإن كان ينبغى علينا أيضاً أن نذكر أن من أهم نواحى جاذبية الرقص أنه يتيح الفرصة لعرض الملبس الأنيق ، والوجه الوسيم ، والجسم الرشيق ، وغير ذلك مما يثير إعجاب الناس . ولذلك نرى أن أكثر روايات السينما نجاحاً لدى صغار المراهقين هى التى يكون ممثلوها من الكواكب الذين يسهل على هؤلاء المراهقين تقمص شخصياتهم ، والذين يقومون بتمثيل أدوار أشخاص يثيرون الإعجاب ، ويظفرون بالنجاح فى المجتمع . أما سباق الكلاب والخيل والسيارات فهى مشاهد للتنافس ، وفيها يخلع المتفرج على نفسه شخصية أحد المتبارين ، فيشاطره صراعه ، ويستمتع بنشوة نجاحه ، أو يتألم لهزيمته .

ويوحى تأكيد مظاهر المتعة الأنانية بوجود ما قد يطلق عليه « سوء التغذية الأنانية » فكثيراً ما لوحظ ذلك أثناء إجلاء الأطفال خلال الحرب ، فإن الأطفال الذين أكرهوا على الابتعاد عن البيئة التى ألفوها ، وحشدوا فى عربات القطر التى أقلتهم إلى جهات غريبة عليهم ، حيث وضعوا بين قوم لم يكونوا جد راغبين فى وجودهم بينهم ، بغض النظر عن رقة قلوبهم ونبل مشاعرهم ، إن أولئك الأطفال باتوا يشعرون بالحاجة إلى إثبات ذاتهم ، ولذلك فإنهم كثيراً ما اندفعوا فى تيار السلوك المسرف فى

الشذوذ الذى بلغ فى بعض الأحيان طور الإجرام . وقد حدث ذلك لأطفال كانوا من قبل على أكبر جانب من الخلق القويم . والتعليل الوحيد على ما يبدو هو أن ما دفعهم إلى ذلك كان حاجتهم إلى الشعور بأنهم أشخاص لهم قيمتهم فى الحياة ، وليسوا كمًّا مهملا . ولذلك كان ما يصدر عنهم من فعال إنما كان يقصد به إثبات ذاتهم فى نظر أنفسهم ، وفى أعين المحيطين بهم .

فإذا لاحظنا أن سلوك بعض الأطفال فى هذه السن ، أو أحاديثهم ، تنبىء عن اعتقادهم بأن أهم شىء فى الحياة هو قضاء « وقت ممتع » ، وأن هذا « الوقت الممتع » يتضمن إشباع نزعات أنانية بحتة ، فإننا عندئذ نستطيع أن ندرك أن هؤلاء الأطفال قد حرموا من مثل ذلك الإشباع فى حياتهم المبكرة . وهذا يؤدى بنا إلى التساؤل عما إذا كان البيت والمدرسة قد استطاعا تهيئة الفرص الضرورية لذلك الإشباع ، وعما إذا كانت هناك مؤسسات أخرى عملت على سد هذا النقص فى عمل البيت والمدرسة .

كذلك نرى أن حرمان الأطفال من فرص إشباع حاجاتهم الأنانية الطبيعية يجعلهم أشد قابلية للاستهواء عن طريق ما يحيط بهم من شتى المؤثرات . فكما يغرى الطعام المكشوف الجائع دون الممتلىء ، بالتهامه ، كذلك الحال فى الأفلام والصحف المصورة التى تسرف فى تصوير السيطرة ، إذ ينبعث منها إيحاء قوى يجذب إليه الناشئين الذين أنكرنا عليهم الفرص

الملائمة لإشباع ميولهم حرصاً على تأكيد الذات والإعجاب والثناء . فالمراهق ، أو المراهقة ، تحيط به ضروب شتى من الدعاية التى توحى إليه بأن الكشف عن الجسد الشاب بالقدر الذى يسمح به القانون حقيق بأن يستدر الإعجاب ، وبأن الثوب الفاخر ضرورى لنيل الحظوة لدى الغير ، وبأن أهم شىء فى الحياة هو الظفر بثناء الناس وإطرائهم . ولذلك تهتم أفلام السينما التى تعرض على الشباب الناشىء بإظهار « كواكب » يشبهون هذا الشباب إلى حد كبير ، ويكونون محط الإعجاب طيلة القصة ، كما أنهم لابد ظافرون فى النهاية بما ينشدونه من نجاح . وهكذا يصبح الظهور بمظهر نجوم السينما مفتاح باب النجاح فى نظر كثير من الأفراد . وينتج عن ذلك انتشار أنماط تصفيف الشعر ، وطلاء الأظافر ، واستخدام مستحضرات التجميل . كما يحاول كثير من المراهقين محاكاة أحد الممثلين إلى أقصى حد ممكن ، بحيث يكون من أيسر الأمور معرفة الممثل الذى اتخذه الشخص أنموذجاً له .

وكثير من الأفلام لا تتطلب أن يكون الممثل ذا مواهب خاصة لكى تعبده الجماهير ، وإنما لابد أن يكون ذا وجه وسيم يصلح للتصوير ، ومثيراً لإعجاب باقى الممثلين فى القصة ، كما لا بد له أن يتقن طائفة من الحركات والأوضاع التى تحل محل الحديث ، وتصبح أنموذجاً يحتذى ، مثلها فى ذلك مثل الزى والمظهر . ولما كان « الفيلم » يؤكد أن هذه العناصر وحدها هى التى تفضى إلى الإشباع فى الحياة ، فلا يدهشنا إذن أن نجد الذين حرموا

من الإشباع الأنانى الطبيعى يرون كل ما عداها لا قيمة له. فعين الجائع لا تقع على غير الطعام ، كما أن تفكيره لا ينصب إلا على وسائل الحصول عليه .

و إذا قلنا إن بعض اليافعين لا يقرءون سوى المجلات التى تختص بشئون السينما ، و يقضون سهرات تشبه تلك التى تأتى هذه المجلات على وصفها ، فيغدو كل تفكيرهم محصوراً فى هذه الدائرة المحدودة ، فإننا لا نقصد بذلك الحط من مبلغ ذكائهم ، إذ حيثما تشتد الرغبة بالمرء فإنه يجعل ذكاءه خادماً لتحقيقها ، و يصرف اهتمامه عن كل ما عداها . وهذا يفسر لنا ما حدث عند ما دعا معهد (جالوب) أولئك المراهقين إلى الإجابة عن طائفة من الأسئلة التى تدور حول بعض المسائل الاجتماعية والسياسية العامة ، فإنه لم يظفر منهم بغير جواب واحد يتلخص في عبارة « لا أعلم » ولكن ذلك لا يعنى إطلاقاً أنهم يقلون من الناحية العقلية ، فى القدرة على إدراك العالم المحيط بهم وفهمه ، عن غيرهم ممن يستطيعون إبداء أحكام حاسمة فى هذه المسائل ، سواء فى مجال الحديث العادى ، أو فى ميدان الإجابة عن الاستفتاءات العامة .

و يدرك كثير من هؤلاء الناشئين أن نواحى النشاط . إذا كان لنا أن نسميها كذلك — التي تستغرق اهتمامهم الآن ، لن تظل كذلك طويلا . فهم يعلمون أن حياة ممثلى السينما وممثلاتها قصيرة ، وأن القصة تبلغ ذروتها عند ما يتم زواج الفتاة بالشاب الذى كانت وظيفته فى الحياة مقصورة على

أن يغمرها بسيل من الإطراء والإعجاب والغزل . أما بعد ذلك فليس ثمة ما يستحق السرد والتصوير ، لأن معظم الأفلام التى تدور وقائعها حول الحياة الزوجية والعائلية تبعث على السآمة والضجر . كذلك يعلمون أن هذا اليفع قصير الأجل ، إذ لابد للجسد البض الأملس أن يتجعد ويهزل ، والتقاطيع النضرة أن تتغضن ، والشعر القوى الثائر أن يضعف ويسقط . هم يعلمون كل ذلك ، ويتحدثون عنه فى صراحة إذ يقولون : « لابد من اقتناص المتعة قبل أن يدبر الشباب » ، كما تضيف بعض الفتيات إلى ذلك قولها : « وقد لا تعود الفرصة بعد الزواج » . فخبرتهم بالحياة لم تبلغ بعد الحد الذى يجعلهم يدركون أن كل فترة من فترات الحياة ، سواء فى ذلك مراحل المهد أو الحداثة أو الرشد ، فيها من ألوان السعادة ما يمكن الوصول إليه إذا ما أدركوا ما لكل منها من خصائص ، وما فيها من إمكانيات ، ثم عرفوا كيف يحسنون استغلالها .

وهكذا كلما ازددنا تعمقاً فى دراسة مشكلة المراهقة ، قوى اعتقادنا بأن شدة المشكلة واحتمال حلها حلا سليما ناجعاً يتوقفان على نوع الفرد الذى بلغها . فإذا كان هذا الفرد كفئاً قادراً على فهم نواحى الموقف تمام الفهم فإن المراهقة تصبح أمراً بسيطاً لا تعقيد فيه . ولكن هذا ليس ميسوراً فى معظم الحالات ، لأن المراهق العادى لا يفهم الموقف الذى يواجهه حق فهمه ، كما أنه ليس متأهباً لمعالجته السوية بالتكيف له تكيفاً سليما .

ومما لا شك فيه أن الذكاء فى هذا المشكل عامل هام نافع ، فالطفل الذكى يستطيع فى العادة أن يظفر من المحيطين به بقسط من الإعجاب وحسن المعاملة أكبر بكثير مما يتاح للطفل الغبى . فهو يتفوق عليه فى المدرسة ، وبذلك يحصل دون جهد يذكر على الأشباع الذى يحاوله الطفل المتخلف عبثاً ، أضف إلى ذلك إن فهمه لما بين النتيجة والسبب من ارتباط من شأنه أن يعينه على تجنب الغرور والخيلاء التى كثيراً ما ينغمس فيها غيره من الأطفال . إذ يدرك أن كل غنم نفسى يظفر به إنما تقابله نتائج معينة أخرى ومن ذلك يستنتج أن العبث لا جدوى منه ولا طائل وراءه . ولذلك نجد أن الطفل الذكى كثيراً ما يكون — وإن لم تكن تلك حاله دائماً — حسن الخلق أيضاً ، إذ تنمو عنده ثقة بالنفس ، ونظرة تفاؤل إلى الحياة ، وروح المرح ، والقدرة على التبصر فى الأمور ، وحسن تقدير العواقب ، كما أنه لا يرهب الإقدام على الابتكار .

أما ذوو الذكاء المتوسط من البنين والبنات فإنهم يكونون أقل توفيقاً ، فهم على الرغم من جدهم فى المدرسة يشعرون دوما بأن هناك من يفوقهم ، أو من يستطيع أن يفوقهم . وقد يكونون مدركين تمام الإدراك أنهم قد بذلوا كل ما فى استطاعتهم من جهد ، ومع ذلك لا يجدون فى هذا إشباعاً كافياً ، إذ لابد إلى جانب ذلك من أن تكون نظرتهم إلى الحياة ناضجة حتى يستطيع الفرد أن يشتق العزاء من إدراكه لقيمة ما بذله من جهد فى عمل من الأعمال ، وإن لم يكن إتقانه له كاملا . وقد يتخذ الغلام

موقفاً دفاعياً ، فيدعى لنفسه أنه ليس رديئاً جداً ، فإن هناك من هم أسوأ منه حالا ، ما دام أنه ليس الأخير فى فرقته . ولذلك نرى كثيراً من التلاميذ يهتمون بأن يقدموا إلى أبويهم التقارير المدرسية التى ترد منها عبارة مثل : « فى مقدور الطالب أن يتقدم أكثر من ذلك ». ومثل هؤلاء التلاميذ يجدون عزاء فى تفوقهم فى إحدى نواحى النشاط — وهى غالباً من النوع الضار — التى لا يكون فيها مجال للتنافس بينهم و بين ذوى الذكاء العالى من زملائهم .

وأما الطفل المنخفض الذكاء فإنه يكون فى موقف أسوأ من كل ذلك ، فهو إذا عمل فإنما يعمل وهو يعلم عن طريق خبراته أنه لا مفر من أن يكون آخر فرقته . فالواجبات التى يسهل أداؤها على سواه من التلاميذ تتطلب منه مجهوداً شاقاً . ومهما بذل من جهد فإن مستوى عمله يظل منخفضاً والمعلم لا يصبر طويلا على مثل أولئك التلاميذ لأنهم يضاعفون العبء الملقى على كاهله من جهة ، كما يشوهون نتيجة جهوده من جهة أخرى . و إذا ما كان الولد المتخلف له من الخصال المرذولة ما يثير حنق زملائه عليه وكراهيتهم له ، فإنه يصبح محور دعاباتهم وسخريتهم ، أما إذا كان محبو باً منهم فإنهم يشفقون عليه ، ومع ذلك لا يغيب عن ذهنه قط أنهم ينظرون إليه دوماً على أنه دونهم فى المرتبة .

وقد حدث أن كان أحد هؤلاء الأطفال المتخلفين فى فرقة تضم تلاميذ أصغر منه سناً ، وأضأل جحما ، فاعتاد أن يجلس فى مكانه دون

حراك ، ولا يحاول بذل أى جهد فى أداء أعماله المدرسية ، وقد لاحظ أحد الزائرين استسلامه لأفكاره ، فسأله عما يشغل باله فى الوقت الذى استغرق فيه زملاؤه فى عملهم ، وعندئذ أجاب الولد بتلك الصراحة التى تميز أمثاله من التلاميذ بأنه كان يتخيل نفسه واقفاً أمام زملائه على منصة ، وقد أخذ يلقى عليهم قصيدة من الشعر نالت منهم الاستحسان التصفيق . وهكذا كان الغلام يشتق من حلم يقظته الإشباع الذى أخفق فى الحصول عليه عن طريق النشاط المدرسى .

والصغار من هذا النوع لا يقنعون فى معظم الأحيان بالاستسلام لأحلام اليقظة . فقد لاحظ زائر لمدرسة أخرى أن غلاماً كبيراً ينفق كل فترات اللعب فى محاولة مضايقة من يصغرونه من التلاميذ بإفساد ألعابهم فكان بعضهم يراوغه و يبتعد عن طريقه ، أما البعض الآخر فكان يصيبهم منه أذى كثير . وقد دل البحث على أن أولئك الأولاد كانوا من نفس فرقته ، ولكنهم كانوا يفوقونه ذكاءً ونشاطاً . ولذلك فإنه كان يقضى الوقت فى حجرة الدراسة واجما مكتئبا ، ولا يحاول أن يبذ هم فى الدروس ، لأنه يعلم أن فى مقدوره أن يتغلب عليهم فى ميدان آخر هو الملعب .

ولاشك أن النقص العقلى ليس النوع الوحيد من النقص الذى يحول دون الظفر بالإشباع الأنانى ، فإن التلاميذ عادة ، والمعلمين أحياناً ، يعجبون بالتفوق الرياضى أكثر من إعجابهم بالتفوق العلمى . ولذلك كثيراً ما نجد أن المصاب بعيب بدنى من الأولاد أو البنات ، أو من كان منهم قميئاً

ضئيل الجرم ، يشعر بالنقص من جراء ذلك ؛ وقد يحاول التغلب على هذا النقص بالإسراف فى بذل الجهد الذى يرمى من ورائه إلى التعويض عما به من نقص ، فإما أن يستطيع بلوغ مستوى يعادل مستوى الفرد العادى ، وإما أن يتجه إلى استغلال ما به من عيوب بشكل يستدر به عطف الغير ونخوته ، بأن يكشف لهم عن مدى حرمانه مما يتمتعون به من قدرات . وهكذا ينجح فى استخدامهم فى أداء أعماله بدلا من أن يؤديها ، وفى الدفاع عنه ، كما يدفعهم فى الوقت نفسه إلى إظهار الحب له ، والمودة نحوه . ولكن إشباع الرغبات الأنانية فى كلتا الحالتين مضموناً أكيداً كما هو فى حالة الشخص العادى ، فالطفل فى الحالة الأولى يكون نزاعاً إلى العدوان ، ميالا إلى التفاخر بالمستوى الذى وصل إليه ، أما فى الحالة الثانية فإنه كثيراً ما يثقل على الذين تطوعوا لمساعدته بمطالبه ، حتى يؤكد لنفسه أنه ما زال محتفظاً بتقديرهم له .

وإن من أعسر الأمور أن نحاول تصنيف الأطفال إلى أنماط خالصة غير متدخلة . فنحن لا نستطيع أن نقول إن الممتازين من الناحية الجسمية يتميز سلوكهم بخصائص معينة ، وإن الموهوبين من الناحية العقلية يتميز سلوكهم بخصائص أخرى مختلفة ، ولكن الأذكياء يميلون بوجه عام إلى أن يكونوا فوق المتوسط من حيث القدرات الجسمية ، كما أن ضعاف العقول يكونون عموماً ضعاف البنية . ولذلك يمكن القول إجمالا أن هناك فئة من الأولاد والبنات تستطيع بالقليل من الجهد أن تتميز عن

الباقين ، وأن تظفر باحترام الآباء والمعلمين وتقديرهم ، فتعيش فى دعة واطمئنان بسبب قدرتها على الاستمتاع بالإشباع النفسى الذى يجدّ فى السعى إليه كل إنسان . كما أن هناك فئة أخرى قد تنجح فى تحقيق هذه الغاية بعد مجهود كبير . وفئة ثالثة لا يتاح لها ذلك مهما جدّت فى المحاولة ، ومهما يسرنا لها فى البيت أو المدرسة من سبل النشاط وفرص العمل . ولذلك يجد بعض أفراد هذه الفئة الأخيرة الفرص التى يطمئن إليها فى صحبة « رفاق السوء » الذين يتخذون منهم « مخالب قطط » تخدم مآربهم الشريرة ، ولكنهم على الرغم من ذلك يحسون الإشباع فيما يلقونه من تشجيع زعمائهم ، وإعجاب رفاقهم بهم عندما ينجحون فى تنفيذ ما يؤمرون به .

وقد حدث أثناء عمليات إجلاء الأطفال خلال الحرب الأخيرة أن بنتاً تبلغ من العمر اثنى عشر عاماً أرسلت إلى حى فقير فى إحدى المدن الساحلية الصغيرة الواقعة فى منطقة مأمونة . وقد كانت البنت ضئيلة الحجم بالنسبة إلى سنها ، حتى أن معلمتها قالت أمامها يوماً ما لأحد زوار المدرسة فى معرض الحديث عنها : « هذه هى م . التى تبلغ من العمر اثنى عشر ربيعاً ، ولكنك لو نظرت إلى جسمها لظننت أنها لم تتجاوز التاسعة . » وعندئذ ابتسمت الطفلة فى حياء ، ولم تنبس ببنت شفة .

وفى ذات يوم ذهب الأطفال ، كل مع فرقته ، إلى ساحل البحر للاستحمام . وقد أثارت م . كثيراً من الضجة حول خلع ملابسها وارتداء

ثوب الاستحمام ، ثم وقفت عند حافة الماء واختبرته بقدمها وقالت إنه بارد جداً . وعندما نزلت أخيراً إليه لم تتقدم أكثر من بضع ياردات ، ثم ذكرت أنها لا تعرف السباحة ، وأنها ترهب الأمواج . وهكذا كانت صورة حية للبنت الضئيلة الخجول ، التى تحتل رأسها فكرة مسرفة عن التواضع .

ولكن هذه الصورة كانت ذات جانب آخر . فقد وُجد أن م . اعتادت أن تذهب إلى ساحل البحر فى رفقة عدد من الأولاد بعضهم أكبر سنا ، ولكنهم جميعاً أكبر منها فى الجسم . فكانت تصحبهم إلى بقعة هادئة قرب الغسق ، حيث تتجرد من ثيابها ، وتسبح معهم عارية . وكانت تسبقهم إلى إلقاء نفسها فى الماء ، وتسبح فى مهارة فائقة ، متحدية إياهم جميعاً أن يلحقوا بها إذا استطاعوا ، فقد كانت سباحة ماهرة جريئة .

وقد نظمت م . الأولاد على شكل عصابة ، اعتادت أن تسطو تحت رئاستها على متجر (ولورث) ، وكانت تتولى هى عملية الحراسة أثناء السرقة .

وفى إحدى المرات صحبت عصابتها للتروض على تل خارج البلدة ، حيث طاردت العصابة قطيعاً من الغنم ، واستطاعت ، بإيحاء منها ، أن تمسك حملا . وعندئذ حاولت م . أن تقتل الحمل ، ففقأت عينيه ، ثم وضعت رأسه تحت الماء حتى نفق .

هذه الحالة تكشف لنا عن ضروب الاستجابات التى سبق ذكرها ،

وهى تظهر فى فترات مختلفة من سلوك طفلة واحدة . ولقد كانت الطفلة غاية فى الوداعة أمام مدرساتها قبل اكتشاف حقيقة أمرها ، فكانت موضع عطفهم ورعايتهم ، كما كانت على درجة من الذكاء تكفى لرضاهن عن عملها المدرسى ، وإن كن يشعرن أن فى وسعها أن تكون أكثر إتقاناً لما تعمل لو أنها وجهت إليه اهتماما كافياً . ولو أنهن علمن حقيقة أمرها من أول الأمر لما أدهشهن أن يجدن أن الحساب والجغرافيا وسائر مواد الدراسة تعتبر من أهون الأمور وأرقها بالنسبة لنواحى النشاط المثيرة الأخرى التى كانت تأتيها ، مثل تحدى الأولاد فى السباحة ، وتنظيم غارات السطو على المتاجر ، ومطاردة الأغنام وقتلها . فهى تعمل خارج المدرسة على تعويض نفسها عما بها من نقص عن طريق ما تقوم به من أعمال العدوان والمغامرة مما ترمى إلى التدليل به على أنها ، رغم ضآلة جسمها ، تفوق من هم أكبر منها حجما وأوفر قوة — أو بمعنى آخر أنها تمثل الفتاة الهزيلة التى تبذ الفتية الأشداء . فهى قد جمعت فى شخصها بين ناحيتين مختلفتين هما اللتان يطلق عليهما (أدلر) اسم « احتجاج الذكر[1] » و « احتجاج الأنثى[2] » . ويبدو أن لفظ « الاحتجاج » يناسب المعنى المقصود ، لأن مثل هذه الضروب من السلوك إنما هى فى الحقيقة نوع من الاحتجاج ، أكثر منها علاجاً . فالقزم يستحيل عليه أن

---

(1) Masculine Protest.

(2) Feminine Protest.

يصبح عملاقاً مهما اختال وتظاهر ، وضج وصخب ، كما يستحيل على العملاق أن يغدو قزماً مهما تضاءل على نفسه ، وأحنى من هامته . فالمشكلة لا تحل حتى يدرك الشخص المصاب بالنقص نوع السلوك والمواقف التى تتيح له الظفر بالإشباع النفسى الذى يدفع بسير نموه فى طريق التقدم السوى . وقد أفضى الوصول إلى مثل هـذه النتيجة إلى الحاجة إلى أن تراعى المدرسة الآن ما بين التلاميذ من فروق فردية فى القدرات العقلية والجسمية ، وفى الميول والاهتمامات ، فلا ينبغى قسرهم على دراسة منهج واحد ، بل لا بد من وضع مناهج مختلفة تلائم حاجاتهم المختلفة ، وبذلك ينفسح المجال أمام المعلم والتلميذ لاختيار أفضل الطرق المؤدية إلى أحسن النتائج . تلك هى المدرسة التى نقول عنها إنها تلائم الطفل ، ولـكنها ليست تلك المدرسة التى تجبر الطفل على ملاءمة نفسه لها .

وليس للطفل المتفوق فى الذكاء ميزة القدرة على عمل ما يحظى من أجله باستحسان المشرفين على أموره ، وإعجاب رفاقه فحسب ، بل إن فى وسعه أيضاً أن يفهم العلاقة القائمة بين الأعمال ونتائجها ، وأن يتعلم من أخطائه بشكل أسرع وأدق من زميله الغبى ، ومن ثم يغدو قادراً على ملاءمة نفسه للعالم المحيط به ، كما أن سلوكه يتـكيف بطبيعة الحال تبعاً لشتى المواقف التى يجد نفسه فيها .

وسواء أكان الرجل الموهوب من سكان استراليا الأصليين ، أو من قرى إقليم نيجيريا ، أو من تجار البادية ، أو فلاحى أمريكا ، أو طلبة

جامعة أكسفورد فإنه يكون دوما أكثر استعداداً من غيره للتكيف لبيئته ، أو لجعل البيئة ملائمة لمطالبه إذا وجد أن ذلك فى صالحه . وقد لاحظنا ذلك من قبل أثناء دراستنا لأسطورة البطل ، فقد رأينا أن الولد يرى نفسه فى أحلام يقظته وقد انقلب الشخص الذى يشتهى أن يكونه ، مما يؤدى إلى تغيير المعاملة التى يلقاها من المحيطين به ، كما أنه قد يغير العالم الذى يعيش فيه ، إما بتحطيم الأشياء التى يمقتها لوقوفها عقبة فى سبيل تحقيق رغائبه ، وإما بابتداع مخترعات تضاعف من قوته ، وتزيد فى أهميته فالبطل هو الشخص الذى يستطيع إحداث ما يريد من تغييرات سواء فى نفسه أو فى العالم المحيط به . وأهم ما تؤكده أسطورة البطل هو إحداث التغييرات فى هذا العالم .

و يتم التعبير عن الرغبات فى صورة محسوسة تشتق عناصرها من البيئة ، وتوحى الخبرات ، وخاصة المبكرة منها ، بصورة السلوك التى يتم بها تحقيق الرغبة فى البطولة . وهذا يفسر لنا كيف أن أوائل خبرات هتلر المبكرة كانت مصطبغة بلون دينى ، لأن مشاهدته للقسس وهم يقومون بالدور الرئيسى فى الحفلات الدينية كانت تترك أثراً عميقاً فى نفسه . أما ذلك اللاندى المخمور الذى وقف خارج أحد الحانات يتباهى بأنه « الفتوة المرهوب لحى كنجز كروس » فإن فكرته عن البطولة تقوم على أهمية ضروب أخرى من الخبرة فى نظره . كما أن الصبى الذى تأثر بمنظر الأسقف أثناء إحدى حفلات التعميد فى الكنيسة أصبح يشتهى أن يصبح أسقفاً ، وهو مطمح

أصابته الخبرات التالية بالتغيير والتعديل . كذلك الطفل الذى نقل يوماً إلى مستشفى مزدحم فى إحدى المدن الصغيرة فوضع فى (عنبر) الرجال ، غداً يطمح إلى أن يكون طبيباً ، وكان ذلك نتيجة لما صادفه من خبرات فى ذلك المستشفى . وعندما سئل عن السبب الذى يريد من أجله أن يكون طبيباً ، أجاب فى جذل ملحوظ « لأن وظيفة الطبيب أن يبتر سوق الناس وعندئذ يموتون » . و باستقصاء الأمر اتضح أنه قد تأثر بما كان يلقاه الأطباء من احترام المرضى والممرضات ، كما أثرت فى نفسه أوامر ممرضته له بضرورة التزام الهدوء والصمت أثناء عيادة الطبيب للمرضى . بيد أن الطبيب لم يكن فى نظره أكثر من شخص يزور المرضى ، فينتقل بين أسرتهم ، ويبدى بعض الملاحظات للممرضة التى ترافقه فى جولته ، كما يفحص اللوحات التي تبين حالة كل منهم وكل هذا لايفسر مدى ما كان يقابل به من مظاهر الاحترام والتبجيل ، كما أن رداءه الأبيض لا يمكن أن يكون الدافع إلى ذلك التوقير . وهكذا أخذ الطفل يقلب الأمر على شتى وجوهه فى رأسه الصغير مدة طويلة ، حتى أتى يوم أبصر فيه أحد المرضى ينقل محمولا إلى غرفة العمليات الجراحية ، ثم سمع بعض المرضى يتحدثون عن بتر ساقه . وفى يوم آخر رأى ستارا قد وضع حول سرير ذلك المريض ، وأخذ المرضى يتحدثون عن توقع موته . وهكذا كانت تلك الخبرات هى التى أوحت إليه بالأسباب التى تجعل من الطبيب شخصية هامة ، كما أوحت إليه بالوسيلة التى تمكّنه هو من أن يصبح

عظيما . وعند ما عاد إلى مدرسته لم يجد بين مواد الدراسة العادية و بين المثل الأعلى الذى نصبه لنفسه أيه علاقة ، فصرف اهتمامه عنها ، مما جعل المدرسين الذين لم يفطنوا إلى طبيعة رد الفعل الذى أصابه يرتابون فى ضعف قواه العقلية ، ولم يُفض حديثه عن رغبته فى أن يصبح طبيباً إلى محو تلك الريبة . ولكن بمجرد أن وُجّه اهتمامه إلى نواح أخرى فإنه عاد إلى سابق عهده من الذكاء والتفوق .

و ينبغى أن نتوقع من الطفل الذى يسير نموه سيراً طبيعياً أن يكون ، فى سن العاشرة أو الحادية عشرة ، قادراً إلى درجة معقولة على فهم نفسه ، وفهم البيئة التى تحيط به بتأثيراتها ، وأن يكون قد عرف الكثير عما له من قدرات ، واكتشف وسائل استغلالها فى الوصول إلى ما يبتغيه من إشباع ، دون أن يتعارض ذلك مع قوانين المجتمع وعاداته ، أو تقاليد الأسرة ونظم المدرسة ، وأن يكون ذا ثقة بنفسه ، قادراً على الاستجابة لمظاهر الاستحسان والاستهجان ، راغباً فى التفوق والاستزادة من العلم ، محباً للصدق ، حى الضمير ، وأن يظهر القدرة على الزعامة فى المواقف التى يحسن فهمها أكثر من غيره ، وأن يكون عطوفاً ، رقيق القلب ، نزاعا إلى بذل العون والمساعدة ، غير ميال إلى الإسراف فى الاعتماد على غيره فى مسراته وتسليته . فإذا نمت كل تلك الخصال عند طفل قوى البنية فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمره ، فإنه يغدو شخصاً قادراً على احتمال مسئولية كثير من الإعمال وإتقانها . ولقد كان الأطفال فى هذه السن

عماد المصانع فى بريطانيا عند بدء نهضتها الصناعية ، فكانوا على أكبر قسط من المهارة والكفاية فيما كانوا يقومون بأدائه من الأعمال التى لا تحتاج إلى قوى بدنية كبيرة . وعند ما أصدرت بريطانيا قرار فرض التعليم الإلزامى ، وتحريم استخدام الصغار ، فإن هذا القرار لقى معارضة من أصحاب المصانع وأرباب الأعمال .

ومما لا شك فيه أن استخدام الأطفال فى مختلف الأعمال يعود عليهم بأضرار جسيمة ، فإنه يحرم الطفل من فرصة التعلم والإعداد للمهن الراقية . كما أن العمل الذى يقوم به يكون غالباً نمطياً ، وليس تدريباً على الحرف التى تحتاج إلى تخصص ومهارة ، فكان يسهل على أصحاب العمل طرد عمالهم الصغار عندما يحين موعد دفع أجورهم ، واستبدال غيرهم بهم . وكانت المصانع فوق هذا ضيقة لا تتوافر فيها الشروط الصحية ، فكان العمل فيها طيلة اليوم مرهقاً ، ويلحق أبلغ الضرر بنمو الأطفال . كذلك كان بعض أصحاب المصانع يستغلون الأطفال استغلالا مشينا ، إذ يكرهونهم على العمل ساعات طويلة فى مهام لا تلائم سنهم . وفى الحالات التى كان نظام العمل فيها يقتضى معيشة الأطفال فى منطقة المصنع ، كان الأطفال يحشرون فى جحور ضيقة كريهة ، ولا ينالون من الغذاء إلا أقله وأسوأه .

ومع ذلك فقد كان لاستخدام الصغار ناحية أخرى . فإن الطفل فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمره يجد متعة فى العمل ، ما دام هذا العمل شيقاً ، وفى متناول قدراته . فكثيراً ما نشاهد فى بعض البلاد صبية

يقومون بإيصال المشتريات إلى المنازل ، أو لفّها فى أكياس ، أو معاونة أحد النجارين ، أو صانعى الأحذية ، أو غيرهم ، فى عملهم . وهم يؤدون هذه الأعمال بلذة واهتمام ، لأن الأطفال فى هذه السن يلذ لهم أن يعملوا فى أحد المتاجر أو الحوانيت . وكثير من التلاميذ الأمريكيين يباشرون أعمالا مختلفة فى أوقات فراغهم ، وربما يكونون مدفوعين إلى ذلك بحاجتهم ، أو حاجة أسرهم ، إلى المال ، ولكنهم إلى جانب ذلك يظفرون من وراء عملهم بقسط كبير من الإشباع النفسى . وقد يسعد الحظ بعضهم بموافقة آبائهم على تخصيص حجرة لهم بالمنزل ، يتخذون منها مصنعاً صغيراً مزوداً بمختلف الآلات والأدوات ، يعملون فيه ما يشاءون فى فراغهم ، ويحتفظون فيه بما لم يتم صنعه من الأشياء ليعودوا إليه فيما بعد ، دون أن يخشوا عليه عبثاً أو إتلافا . وفى مثل هذا المكان يصنعون لُعباً ونماذج مختلفة ، ويصلحون دمى أخواتهم ، كما يصنعون عدداً من الأدوات المنزلية النافعة ، أو بعض قطع الأثاث . والغلام الذي يقوم بصنع أشياء لغيره ، أو يحمل راتبه إلى أبيه ، إنما يجعل من نفسه أداة ضرورية لغيره ، فيدلل بذلك لنفسه وللناس على أنه قد خلف وراءه مرحلة الطفولة المتواكلة وأخذ يشق طريقه إلى الرشد والنضج . ويعتبر نزوله عن إنتاجه أو كسبه لغيره خطوة نحو مرحلة تالية هامة هى مرحلة بذل النفس والغيرية . وعندما يرى أن ما كان يبدو له مجرد مشروع نظرى قد أصبح حقيقة محسوسة ، أى عندما يخلق شيئاً يستطيع أن يتحدث عنه بقوله : « لقد صنعت هذا

بنفسى » فإنه يحس بنفسه فخراً لا يقل عن فخاره بحصوله على درجة عالية فى الجغرافيا ، أو الدرجة النهائية فى الحساب .

ويكشف مثل هؤلاء الأولاد والبنات عن تكامل واضح فى الشخصية ، مما يرجع حتما إلى نوع الخبرات التى صادفتهم فى حياتهم المبكرة ، وإلى قدرتهم على استخدام هذه الخبرات . وكلا العنصرين ضرورى ، لأن تكامل الشخصية ليس أمراً مفاجئاً لا علة له . فإنه على الرغم من تقسيمنا النمو إلى مراحل ، فهو عملية متصلة الحلقات ، تلخص فى كل لحظة تأثير جميع ما مر به الفرد من خبرات . فالطفل العادى الذى يشب فى بيئة يحس فيها الأمن والاطمئنان ، ويواجه من المشكلات ما يتناسب مع قدراته ، لابد أن يتزن نموه ، وتتكامل شخصيته . ويزداد هذا التكامل على مر السنين ، ولكنه يكون متوقفاً على مدى ما سبقه من تكامل .

وليس الجناح[1] فى الحقيقة إلا إخفاقاً فى أداء الواجب ، أو تغافلا وقد يعتبر فى أبسط حالاته خطأ ، وفى أخطر صوره جريمة يحاكم عليها . وهذا أول اعتراف عام بخروج الطفل على القانون . ولا تشير الإحصاءات الخاصة بالأعمار التى تعالج المحاكم فيها آثام الأطفال إلى مظاهر الجناح المبكرة فى المدرسة والملعب والبيت ، لأن جناح صغار الأطفال لا يحمل على محمل الجد ، فإن ضعفهم وسذاجتهم تجعلانهم بوجه عام غير قادرين

(1) Delinquency.

على ارتكاب أعمال ذات نتائج مادية خطيرة ، فسرقتهم تنصب عادة على التافه من الأشياء . أو القليل من المـال ، كما أن أكاذيبهم تـكون من السذاجة بدرجة لا تخفى على أحد . كذلك يندر أن تسبب فعالهم ضرراً يذكر . ولـكن هـذه الضروب من الجناح تقوم فى جوهرها على دوافع شبيهة بالدوافع التى تحفز المجرمين من الـكبار على ارتكاب ما يقومون به من مخالفات ، فهى معالجة موقف من المواقف بشـكل لا تقره قوانين المجتمع وعاداته . وقد تـكون — إذا لم تـكن مما يحرمه القانون — حلا مرضياً للموقف ، وعندئذ ينطبق عليها المثـــل الـكلبى[1] القائل بأن « الأخلاق تتغير بتغير المناخ » ، أى تتوقف على خطوط الطول والعرض . ولـكن متى حرمها القانون فإن كثيراً من الأسباب تقـوم للحيلولة دون ارتكابها ، كالخوف من العقاب المترتب على الخروج على القواعد الموضوعة أو احترام سلطة المجتمع . والخوف دافع وضيع لأنه وثيق الاتصال بالغريزة أما احترام السـلطة فيقوم على العاطفة ، وهى اتجاه مركب ينمو عن طريق الخبرة .

وقد أشار (السير سيرل برت) فى معرض تفصيله لعدد من حالات جناح الأحداث ، وذلك فى كتابه الشهير المعروف باسم « الجانح الصغير[2] » .

---

(١) نسبة إلى مدرسة الـكلبيين cynics التى أسسها أنتستانس الأثينى من تلاميذ سقراط (المترجم)

(2) Professor Sir Cyril Burt : " The Young Delinquent " (4 th. Edition) University of London Press, 1943. p. 553.

إلى أن القارىء المدقق يستطيع فى معظم الحالات ، إن لم يكن فيها جميعاً ، أن يلحظ فى حياة كل جانح وجود « حالة أو لحظة على أكبر جانب من الأهمية ... هى حالة الصراع الأخلاقى » ، إذ تكشف هذه الحالات عن اتجاهين متضاربين ، ففيها تتجاذب الطفل نزعة غريزية معينة من ناحية ، ونزعة أخرى مناقضة لها من ناحية أخرى . فهو قد يبصر مثلا شيئاً يثير نزعات الجوع عنده ، ويحفزه على الحصول عليه ، ولكنه يدرك فى نفس الوقت أن أخذ شىء مملوك للغير يعد سرقة تفضى إلى العقاب . وهكذا يحار بين الاتجاهين ، فيتوقف عن العمل بعض الوقت على الأقل ، فتظل المشكلة قائمة طالما أنه لم يستطيع اتخاذ قرار بشأنها ، ويبقى فى حالة توتر مقلق . ولا يتوقف القرار الذى يتخذه على نزعاته الغريزية وحدها بل كذلك على القوة التى تستمدها إحدى النزعتين المتعارضتين من الاتجاهات التى تمتها عنده خبراته السابقة ، والتى تكون مصطبغة بصبغة وجدانية . فإما أن تقوى نزعات الجوع وتنجح فى رفع الفرد إلى ارتكاب السرقة ، وإما أن يطغى شعور الخوف فيبتعد الطفل عن الرغيف المغرى . ولكن كلا السلوكين لا يعتبر حلا ناجعاً ، لأن النزعة التى يُهمل شأنها تظل علة للتوتر ، إذ بمجرد أن يختطف اللص الصغير الرغيف ينتابه الخوف من العواقب ، كما أن الطفل الذى يقاوم إغراء السرقة يوالى التفكير فى ذلك الرغيف الذى كان فى متناول يده ، ويتمنى أن لو كان قد أوتى الشجاعة الكافية لاختطافه . أما الحل السليم الوحيد فهو الذى يتضمن كلا العنصرين ،

ويهتم بهما معا ، كأن يفكر الطفل فى عمل أتمه حديثاً مما كان موضع تقدير أمه ، مستحقاً مكافأتها ، وعندئذ يذهب إليها ، ويذكرها به ، وينبئها بجوعه ، ويطلب إليها أن تعطيه ما يسد به رمقه .

ومثل هذا الحل يتطلب من الطفل أن يكون منتظم التفكير ، متزن الانفعالات ، كما يتطلب مرونة الموقف الاجتماعى وقابليته للتكيف . أو بعبارة أخرى يستلزم من الطفل القدرة على النمو السوى ، ومن البيئة إتاحة الفرصة لهذا النمو . ولكن إذا استحال الوصول إلى هذا الحل بسبب عيب فى الطفل ، أو نقص فى البيئة ، فإن الطفل لا يظفر بالإشباع النفسى ، بل يصيبه الحرمان . وهذا الحرمان يثير عنده النزعة إلى المقاتلة التى تعبر عن نفسها فى صورة البغض وأفعال الكراهية مثل الكذب ، والسرقة ، والتخريب ، والعنف . وإذا كان الطفل يرهب الأشخاص الذين تسببوا فى حرمانه فإنه قد يوجه كراهيته نحو غيرهم ممن لا يخشى بأسهم ، ويتخذ منهم بدائل لهم . فإذا كان يخاف أمه مثلا ، فإنه قد يهاجم وليدها الضعيف ، أو يعتدى على أخيه الصغير . وقد يتمرد على المدرسة لأن عقاب العصيان فيها أقل صرامة من العقاب الذى قد ينزله به أبواه القاسيان إذا لم يطع أوامرهما فى البيت . وهكذا يرتكب أعمالا تجعل منه جانحاً تتلقفه العيادات السيكلوجية أو المحاكم ، أو يشق طريقه فى الحياة وهو يحمل بين جنبيه حقداً على أقرانه ، وعلى جميع ألوان السلطة ، فيصبح عضواً فاسداً فى المجتمع .

ولا شك أن حل مشكلات الحياة اليومية ميسور بالنسبة إلى من حسنت استعداداتهم الجسمية والعقلية ، ومن أسعدهم الحظ بالنشأة فى بيئة صالحة من الناحيتين الإنسانية والمادية . أما الصغار وضعاف الذكاء فإنهم يحتاجون إلى إرشاد مشوب بالعطف يعينهم على الوصول إلى الحل الذى يستطيع أولئك الآخرون بلوغه بأنفسهم ، ويساعدهم على الظفر من وراء ذلك بالإشباع النفسى الذى يحفزهم إلى موالاة النشاط والعمل . كذلك يستطيع الكبار أن يساعدوهم على فهم الأسباب التى تجعل بعض الحلول يفضل ذلك البعض الآخر الذى يتوقف على الاستسلام لإغراء الدوافع الغريزية ، أو الخوف . ويزداد هذا العبء صعوبة إذا ما كانت البيئة معيبة . وإذا أرسل الطفل إلى العيادة السيكولوجية فإن يكون تحت إشراف إخصائى اجتماعى وظيفته الاتصال بمدرسته وأسرته ، وتدبير الوسائل لإقناع الآباء والمدرسين بضرورة إشباع حاجاته ، وتغيير البيئة بالقدر الذى يكفل تحقيق هذه الغاية .

فإخفاق المراهق فى معالجة المشكلات التى تقوم فى وجهه قد يرجع بوجه عام إلى فشله من قبل فى مواجهة المواقف المبكرة ، وبذلك يقبل على هذه المرحلة الجديدة من مراحل نموه دون أن تكون درجة النمو التى بلغها كافية لجعله مستعدا لها تمام الاستعداد . ولذلك لابد أن تستغل السنوات السابقة على المراهقة فى وضع الأساس الذى يقوم عليه بناء العواطف المتزنة الثابتة التى تشد أزر النزعات الغريزية ، أو تقاوم سلطانها ،

كما تستغل فى تعويد الطفل استخدام ذكائه فى حل مشكلات السلوك ، وفى تدريبه على أن تكون الاستجابات الوجدانية ثابتة متزنة ، وتعويده العادات النافعة . ولكن كل ذلك لا يعنى أن المراهقة لا تجر وراءها مشكلات جديدة ، إذ لا شك فى أن بلوغ النضج الجنسى ، ويقظة الغرائز الجنسية فى الوقت الذى يتيح النمو الجسمى للمراهق القدرة على إشباعها بطرق مختلفة ، يخلق مشاكل جديدة . ولكن لا شك أيضاً فى أن النمو السليم السوى فى المراحل التى تسبق المراهقة يزود المراهق بقدرة فائقة على حل هذه المشكلات حلا مرضيا .